سورة المؤمنون[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾

لما قال الحق ـ تبارك وتعالى ـ في الآية قبل السابقة من سورة الحج ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾ [الحج] ولعلَّ تفيد الرجاء ، أراد سبحانه أن يؤكد هنا على فلاح المؤمنين فقال : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون] وأن الرجاء من الله واقع ومؤكد ، لذلك جاء بأداة التحقيق ﴿قَدْ﴾ التي تفيد تحقُّق وقوع الفعل ، وهكذا تنسجم بداية سورة (المؤمنون) مع نهاية سورة (الحج) .

وقوله تعالى هناك ﴿تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾ [الحج] وهنا ﴿أَفْلَحَ ۝١﴾ [المؤمنون] مادة (فلح) مأخوذة من فلاحة الأرض ، والفَلْح هو الشق ؛ لذلك قالوا : إن الحديد بالحديد يفلح ، وشَقُّ الأرض : إثارتها وإثارتها بالحرث ، وهذه العملية هي أساس الزرع ، ومن هنا سُمِّي الزرع حَرْثًا في قوله سبحانه : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ

---

(١) سورة المؤمنون ، هي السورة رقم (٢٣) في ترتيب المصحف الشريف . عدد آياتها ١١٨ آية ، وهي سورة مكية كلها في قول الجميع . قاله القرطبي في تفسيره (٦/٤٦٣٥) . وهي السورة رقم ٧٣ في ترتيب النزول ، نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة السجدة . قاله ابن الضريس في فضائل القرآن فيما نقله عنه السيوطي في « الإتقان » (١/٢٧) .

الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة]

ومعنى أفلح : فاز بأقصى ما تتطلع إليه النفس من خير .

والأرض حين تحرثها تكون خالية ليس فيها شيء يُهْلَك ، إذن : المراد بالحرث هنا الزرع الناتج عن عملية الحرث ، والتي لا بُدَّ منها كي تتم عملية الزراعة ؛ لأنك بالحرث تثير التربة ليتخللها الهواء ، فيزيد من خصوبتها وصلاحها لاستقبال البذرة ، وسبق أن تحدثنا عن عملية الإنبات ، وكيف تتم ، وأن النبات يتغذى على فلْقتي البذرة إلى أن يصبح له جذر قوي يستطيع أن يمتصَّ من التربة ، فإن ألقيتَ البذرة في أرض صماء غير مثارة فإن الجذر يجد صعوبة في اختراق التربة والامتصاص منها .

فالحق - تبارك وتعالى - يعطينا صورة من واقعنا المشاهد ، ويستعير من فلاحة الأرض ليعبر عن فلاح المؤمن وفوزه بالنعيم المقيم في الآخرة ، فالفلاح يحرث أرضه ويسقيها ويرعاها فتعطيه الحبة بسبعمائة حبة ، وهكذا سيكون الجزاء في الآخرة : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة]

فإذا كانت الأرض المخلوقة لله عز وجل تعطي كل هذا العطاء ، فما بالك بعطاء مباشر من خالقك وخالق الأرض التي تعطيك ؟ وكما أن الفلاح إذا تعب واجتهد زاد محصوله ، كذلك المؤمن كلما تعب في العبادة واجتهد زاد ثوابه وتضاعف جزاؤه في الآخرة .

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ ﴾ (١)

كان أول ظاهرية الفلاح فى الصلاة ، وما يزال الحديث عنها موصولاً بما قاله ربنا فى الآيات السابقة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ ۝٧٧ ﴾ [الحج] وقال بعدها : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ .. ۝٧٨ ﴾ [الحج]

وهنا جعل أول وصف للمؤمنين الذين أفلحوا ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ ﴾ [المؤمنون] فلم يقل مثلاً : مؤدون ؛ لان أمر أداء الصلاة فى حق المؤمنين مفروغ منه ، العبرة هنا بالهيئة والكيفية ، العبرة بالخشوع والخضوع وسكينة القلب وطمأنينته واستحضار الله الذى تقف بين يديه .

كما تقول لولدك : اجلس أمام المعلم باهتمام ، واستمع إليه بإنصات ، فأنت لا توصيه بالذهاب إلى المدرسة أو حضور الدرس ، فهذا أمر مفروغ منه ؛ لذلك تهتم بجوهر الموضوع والحالة التى ينبغى أن يكون عليها .

والخشوع أن يكون القلب مطمئناً ساكناً فى مهمته هذه ، فلا ينشغل بشىء آخر غير الصلاة ؛ لأن الله ما جعل لرجل من قلبين فى جوفه ، وما دام فى حضرة ربه عز وجل فلا ينبغى أن ينشغل بسواه ، حتى إن بعض العارفين لمعنى الخشوع يقول : إن الذى

---

(١) سبب نزول الآية : أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد ابن سيرين قال : « كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة ويلتفتون يميناً وشمالاً . فانزل الله ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ ﴾ [المؤمنون] فطأطأوا برؤوسهم ، فلم يرفعوا أبصارهم بعد ذلك فى الصلاة ، ولم يلتفتوا يميناً ولا شمالاً » [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٨٣] .

يتعمد معرفة مَنْ على يمينه أو مَنْ على يساره في الصف تبطل صلاته[1] .

ولما دخل سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ على رجل يصلى ويعبث بلحيته ، فضربه على يده وقال : لو خشع قلبك لخشعتْ جوارحك[2]. ذلك لان الجوارح تستمد طاقتها من القلب ومن الدم الذى يضخه فيها ، فلو شغل القلب عن الجوارح ما تحركت .

لذلك لما سأل أحد الفقهاء صوفياً : ما حكم مَنْ سها فى صلاته ؟ قال : حكمه عندنا أم عندكم ؟ قال : ألنا عند ولكم عند ؟ قال : نعم . عند الفقهاء مَنْ يسهو فى الصلاة يجبره سجود السهو ، أما عندنا فمَنْ يسهو فى الصلاة نقتله . يعنى مسألة كبيرة .

ثم ألاَ يستحق منك ربك وخالقك أن تتفرغ له سبحانه على الأقل وقت صلاتك ، وهى خمس دقائق فى كل وقت من الاوقات الخمسة . وقد تركك باقى الوقت تفعل ما تشاء ؟ أتستكثر على ربك أن تُفرِّغ له قلبك . وأن تستحضره سبحانه ، وهذه العملية فى صالحك أنت قبل كل شىء . فى صالحك أن تكون فى جلسة مع ربك تستمد منه سبحانه الطاقة والمعونة ، وتتعرض لنفحاته وإشراقاته وتقتبس من أنواره وأسراره ؟

ومن حرص أهل التقوى على سلامة الصلاة وتمامها قال أحدهم

---

(١) قاله معاذ بن جبل رضى الله عنه فيما ذكره عنه أبو محمد عبد الحق الإشبيلى فى « الصلاة والتهجد » (ص ١٩٢) .

(٢) ذكر أبو محمد عبد الحق هذا الأثر فى كتاب « الصلاة والتهجد » (ص ١٩٨) بتحقيقى ـ طبعة دار الوفاء المنصورة ، ولكن عزاه للحسن البصري ، وذكر له أيضاً أن الحسن نظر يوماً إلى رجل يعبث بالحصباء فى الصلاة وهو يقول : اللهم زوِّجنى من الحور العين ، فقال له : بئس الخاطب أنت ، تخطب الحور العين وأنت تعبث بالحصباء .

لصاحبه الذى يحرص على أنْ يؤم الناس : لماذا تحرص على الإمامة وأنت تعرف أن طالب الولاية لا يُولَّى ؟ قال : نعم أحرص عليها لأخرج من الخلاف بين الشافعى الذى قال بقراءة الفاتحة خلف الإمام ، وأبى حنيفة الذى قال بأن قراءة الإمام قراءة للمأموم ، فأحرص على الإمامة حتى أقرأ أنا ، ولا أنشغل بهذا الخلاف .

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ ﴾

اللغو : الكلام الذى لا فائدة منه ، ويُطلق أيضاً على كل فعل لا جدوى منه ، وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان] لا يشغلون به ولا يأبهون له ، وحكى القرآن عن الكفار عند سماعهم القرآن قولهم : ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت]

لذلك جعل الحق ـ تبارك وتعالى ـ من نعيم الجنة : ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة] كان من المعايب فى الدنيا ومن مصائبها أن نسمع فيها لغواً كثيراً لا فائدة منه ، وفى آية أخرى يقول عن خمر الآخرة التى لا تُذهب العقل ، ولا تجعل صاحبها يهذى بلغو الكلام : ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الطور]

و ﴿مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون] الإعراض فى الأصل تجنّب الشىء ، وهو صورة لحركة إباء النفس لشىء ما ، وأهل المعرفة يضعون للغو مقياساً ، فيقولون : كل عمل لا تنال عليه ثواباً من الله فهو لغو .

لذلك احرص دائماً أن تكون حركتك كلها لله حتى تُثَابَ عليها ، كصاحبنا الذى دخل عليه رجل وقصده فى قضاء أمر من الأمور وهو لا يملك هذا الأمر ، لكن أراد أنْ يستغل فرصة الخير هذه ، وأن يكون

له ثواب حتى فى حركة الامتناع عنه ، فرفع يده : اللهم إنه عبد قصد عبداً وأنا آخذ بيده واقصد رباً ، فاجعل تصويب خطئه فى تصدى تصويباً للتصدك . يعنى : أنا وإنْ كنتُ لا أقدر على قضائها إلا أننى أدخل بها على الله من هذه الناحية .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

الزكاة أولاً تطلق على معنى التطهير ، كما جاء فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة] لأن الغفلة قد تصيب الإنسان حال جمع المال ، فيخالط ماله ما فيه شبهة مثلاً ، فيحتاج إلى تطهير ، وتطهير المال يكون بالصدقة منه .

والزكاة بمعنى النماء ، فبعد أن تُطهر المال تُنمِّيه وتزيده ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ ﴾ [الشمس] يعنى : نمَّى ملكة الخير فيها ، ورقَّاها وصعَّدها بأن ينظر إلى العمل إنْ كان سينقص منه فى الظاهر ، إلا أنه سيجلب له الخير فيما بعد ، فترتقى بذلك ملكات الخير فى نفسك .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن الربا ، وهو الزيادة جمع المتناقضات فى آية واحدة ، فالربا يزيد المال ويأخذ المرابى المائة مائة وعشراً ، فى حين تنقص الزكاة من المال فى الظاهر ، فالمائة بعد الزكاة تصبح سبعة وتسعين ونصفاً ، ثم تأتى الآية لتضع أمامك المقياس الحقيقى : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ [البقرة] ، فالربا الذى تظنه زيادة هو مَحْقٌ ، والذى تظنه نقصاً هو بركة وزيادة ونماء .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الروم] أى : الذين يضاعف الله لهم ويزيدهم .

وكما أمرنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بالخشوع فى الصلاة أمرنا كذلك فى الزكاة ، فلم يقل : مؤدون ، ولكن ﴿فَاعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [المؤمنون] وهذه من تربية مقامات العبادة فى الإنسان ، فأنت حين تصلى ينبغى أن تخشع وتخضع فى صلاتك لله ، وكذلك حين تُزكّى تُرقّى ملكة الخير فى نفسك ، فحين تعمل وتسعى لا تعمل على قَدْر حاجتك ، وإنما على قَدْر طاقتك ، فتأخذ من ثمرة سَعْيك حاجتك ، وفى نيتك أن تُخرج من الباقى زكاة مالك وصدقتك ، فالزكاة ـ إذن ـ فى بالك وفى نيتك بدايةً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾﴾

الفروج : جمع فَرْج ، والمقصود سَوْءَتَا كُلٍّ من الرجل والمرأة ، وقد أمر الله تعالى بحفظها على المهمة التى خُلقت من أجلها ، ومهمة هذه الأعضاء إما إخراج عادم الجسم من بول أو غائط ، أو العملية الجنسية وهدفها حفْظ النسل ، وعلى الإنسان أن يحفظ فرجه على ما أحلّه الله له فى قوله تعالى :

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾

أى : يحفظون فروجهم إلا على أزواجهم ؛ لأن الله أحلها ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴿٦﴾﴾ [المؤمنون] وملْك اليمين حلال لم يَعُدْ له موضع ،

ولم يَعُد له وجود الآن ، وقد حرم هذا القانون البشرى الدولي ، فلم يعد هناك إماء كما كان قبل الإسلام ، فهذا حكم مُعطّل لم يَعُدْ له مدلول ، وفرق بين أن يُعطّل الحكم لعدم وجود موضوعه وبين أن يُلْغى الحكم ، فملْك اليمين حكم لم يُلْغ ، الحكم قائم إنما لا يوجد له موضوع .

ولتوضيح هذه المسألة : هَبْ أنه في مجتمع كله أغنياء ، ليس فيهم فقير ولا مستحق للزكاة عندها نقول : حكم الزكاة مُعطّل ، فهي كفريضة موجودة ، لكن ليس لها موضوع .

وبعض السطحيين يقولون : لقد ألغى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سهام المؤلفة قلوبهم[1] ، والحقيقة أنه ما ألغى ولا يملك أن يُلغى حكماً من أحكام الله ، إنما لم يجد أحداً من المؤلّفة قلوبهم ليعطيه ، فالحكم قائم لكن ليس له موضوع ، بدليل أن حكم تأليف القلوب قائم ومعمول به حتى الآن في بلاد المسلمين ، وكثيراً ما نحاول تأليف قلوب بعض الكُتّاب وبعض الجماعات لنعطفها نحو الإسلام ، خاصة وغيرنا يبذلون قصارى جهودهم في ذلك . إذن : فسَهْم المؤلّفة قلوبهم ما زال موجوداً ويُعمل به .

كما نسمع مَنْ يقول : إن عمر ـ رضي الله عنه ـ عطّل حَدّ السرقة في عام الرمادة ، وهذا ادعاء مخالف للحقيقة ؛ لأنه ما عطّل

---

(١) روى عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن حجاج بن دينار عن ابن سيرين عن عبيدة قال : « جاء عيينة بن حصن والأقرع بن حابس إلى أبي بكر فقالا : يا خليفة رسول الله ، إن عندنا أرضاً سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة فإن رأيت أن تعطيناها ! فأقطعها إياهما وكتب لهما عليها كتاباً وأشهد ، وليس في القوم عمر ، فانطلقا إلى عمر ليشهد لهما ، فلما سمع عمر ما في الكتاب تناوله من أيديهما ثم تفل فيه فمحاه ، فتذمرا وقالا مقالة سيئة ، فقال : إن رسول الله ﷺ كان يتألفكما والإسلام يومئذ قليل ، وإن الله قد أغنى الإسلام ، اذهبا فاجهدا جهدكما لا يرعى الله عليكما إن رعيتما » . [أورده أبو بكر الجصاص في أحكام القرآن ٣/١٦٠] .

هذا الحد إنما عطّل نصاً واحيا نصاً ؛ لأن القاعدة الشرعية تقول : ادراوا الحدود بالشبهات . وما دام قد سرق ليسدَّ جَوْعته فلم يصل إلى نصاب السرقة ، فالسرقة تكون بعد قدر يكفي الضرورة .

ولقائل أن يقول : إذا دارت حرب بين المؤمنين والكافرين وأسروا منا وأسرنا منهم ، ألا يوجد حينئذ ملْك اليمين ؟ نقول : نعم يوجد ملْك اليمين ، لكن سنواجهك قوانين دولية ألزمتَ نفسك بها وارتضيتها تقول بمنع الرقّ وعليك الالتزام بها ، لكن إنْ وُجد الرقُّ فملْك اليمين قائم وموجود . وهذه المسألة يأخذونها سُبَّة في الإسلام ، وكيف أنه يبيح للسيد كذا وكذا من ملْك يمينه .

وهذا المأخذ ناشئ عن عدم فهم هؤلاء للحكمة من ملْك اليمين ، وأن كرامة المملوكة ارتفعت بهذه الإباحة ، فالمملوكة أُخذت في حرب أو خلافه . وكان في إمكان مَنْ يأخذها أن يقتلها ، لكن الحق سبحانه حمى دمها ، وتسمَّى في النفس مسألة النفعية ، فأباح لمَنْ يأسرها أن ينتفع بها وأحلّها له أيضاً .

ولك أن تتصور هذه الأمَة أو الأسيرة في بيت سيدها ومعه زوجة أو أكثر وهي تشاهد هذه العلاقات الزوجية في المجتمع من حولها ، إن من حكمة الله أن أباح لسيدها معاشرتها ؛ لأنها لن ترى لربة البيت بعد ذلك مزيّة عليها ؛ لأنهما أصبحا سواء ، فإذا ما حملتْ من سيدها فقد أصبحتْ حُرَّة بولدها ، وكان الحق سبحانه يُسيِّر الأمور تجاه العتْق والحرية . ألاَ تراه بعد هذا يفتح باب العتق ويُعدِّد أسبابه، فجعله أحد مصارف الزكاة وباباً من أبواب الصدقة وكفّارة لبعض التجاوزات التي يرتكبها الإنسان .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ [المؤمنون] يعني : لا نمدحهم ولا نذمُّهم ، وكأن المسألة هذه في أضيق نطاق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ ﴾

﴿ ابْتَغَىٰ ﴾ : طلب ، ﴿ وَرَاءَ ذَٰلِكَ ﴾ : غير ما ذكرناه من الأزواج وملك اليمين .

وسبق أن ذكرنا أن كلمة ﴿ وَرَاءَ ﴾ استُعْملت في القرآن لمعانٍ عدة ، فهي هنا بمعنى غير الأزواج وملك اليمين . ومن ذلك أيضاً قوله سبحانه : ﴿ .. وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ ۝٢٤ ﴾ [النساء] يعني : حرَّمْت عليكم كذا وكذا ، وأحلَلْتُ لكم غير ما ذُكِر .

وتُستعمل وراء بمعنى بَعْد ؛ لأن الغيرية قد تتحد في الزمن ، فيوجد الاثنان في وقت واحد ، أمَّا البعدية فزمنها مختلف ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ[1] فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝٧١ ﴾ [هود] يعني : من بعده ؛ لأن الزمن مختلف .

وتأتي وراء بمعنى : خلف ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ۝١٨٧ ﴾ [آل عمران] يعني : جعلوه خلف ظهورهم .

وتأتي وراء أيضاً بمعنى أمام ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩ ﴾ [الكهف] ومعلوم أن الملك كان أمامهم ينتظر كل سفينة تمرُّ به فيأخذها غَصْبًا .

---

(١) روى الأزهري عن الفراء في تفسير هذه الآية : « إنما ضحكت سروراً بالأمن لأنها خافت كما خاف إبراهيم ، وقال الفراء : وهو ما يحتمله الكلام والله أعلم ، وأما قولهم فضحكت : حاضت ، فلم نسمعه من ثقة » أورده ابن منظور في لسان العرب - مادة : ضحك .

وقوله تعالى : ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ..(١٦)﴾ [إبراهيم] وجهنم أمامه ، وستأتى فيما بعد ، ولم تمضِ فتكون خلفه .

ومعنى : ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ (٧)﴾ [المؤمنون] أى : المعتدون المتجاوزون لما شُرع لهم ، وربنا ـ تبارك وتعالى ـ حينما يُحذِّرنا من التعدى يُفرِّق بين التعدى فى الأوامر ، والتعدى فى النواهى ، فإنْ كان فى الأوامر يقول : ﴿فَلَا تَعۡتَدُوهَا (٢٢٩)﴾ [البقرة]

وإن كان فى النواهى يقول : ﴿فَلَا تَقۡرَبُوهَا (١٨٧)﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ (٨)﴾

﴿رَٰعُونَ﴾ : يعنى يحافظون عليها ويراعونها بالتنفيذ ، والأمانة : كل ما استُؤمنْت عليه ، وأول شىء استُؤمنتَ عليه عهد الإيمان بالله الذى أخذه الله عليك ، وما دُمْت قد آمنت بالإله فعليك أن تُنفِّذ أوامره .

إذن : هناك أمانة للحق وأمانة للخَلْق ، أمانة الحق التى قال الله تعالى عنها :

﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا (٧٢)﴾ [الأحزاب]

فما دُمْتَ قد قبلت تحمُّل الأمانة ، فعليك الأداء .

أما العهد : فكل ما يتعهد به الإنسان فى غير معصية ويلزمه الوفاء بما عاقد به ؛ لأنك حين تعاقد إنساناً على شىء فقد ربطْتَ حركته وقيدتها فى دائرة إنفاذ هذا العهد ، فحين تقول لى : سأقابلك غداً فى المكان الفلانى فى الوقت الفلانى لعمل كذا وكذا ، فإننى

سأرتِّب حركة حياتي بناءً على هذا الوعد ، فإذا أخلفتَ وعدك فقد أطلقتَ نفسك في زمنك وتصرفت حسْب راحتك ، وقيَّدْت حركتي أنا في زمني وضيَّعت مصالحي . وأربكت حركة يومي ! لذلك شدَّد الإسلام على مسألة خُلْف الوعد .

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ ﴾

في الآيات السابقة تحدَّث عن الصلاة من حيث هيئة الخشوع والخضوع فيها ، وهنا يذكر الصلاة من حيث أدائها والحفاظ عليها ؛ لأن الحفظ يعني أن تأخذ كل وقت من أوقات الصلاة بميلاده وميلاد الأوقات بالأذان ، لكن البعض يقولون : إن الوقت مُمْتدٌّ ، فالظهر مثلاً مُمْتد من أذان الظهر إلى قبل أذان العصر ، وهكذا في باقي الصلوات .

نقول : نعم هذا صحيح والوقت مُمتد ، لكن مَنْ يضمن لك الحياة إلى آخر الوقت ؟ مَنْ يضمن لك أن تصلي العشاء مثلاً قبل أذان الفجر ؟ نعم ، تظل غير آثم إلى آخر لحظة إذا تمكنتَ من الصلاة وصلَّيْتَ ، لكن هل تضمن هذا ؟ كالذي يستطيع أن يحج ، إلا أنه أخَّر الحج إلى آخر أيامه ، فإنْ حج فلا شيء عليه ، لكنه لا يضمن البقاء إلى أنْ يحج ؛ لذلك يجب المبادرة بالحج عند أول استطاعة حتى لا تأثم إنْ فاتك وأنت قادر .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ (١) ۝١٠ ﴾

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٦/٤٦٤١) : « أي : يرثون منازل أهل النار من الجنة . وفي الخبر عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « إن الله تعالى جعل لكل إنسان مسكناً في الجنة ومسكناً في النار ، فأما المؤمنون فيأخذون منازلهم ويرثون منازل الكفار ويجعل الكفار في منازلهم في النار » خرجه ابن ماجه بمعناه » .

﴿ أُولَٰئِكَ ﴿١٠﴾ ﴾ [المؤمنون] يعني : أصحاب الصفات المتقدمة ، وهم ستة أصناف : الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون .

هؤلاء هم الوارثون ، والإرْث : أخْذ حق من غير عقد أو هبة ؛ لأن أخْذ مال الغير لا بُدَّ أن يكون إما ببيع وعقد ، وإما هبة من صاحب المال . لذلك سألوا الوارث : أهذا حقك ؟ قال : نعم ، قالوا : فما صكُّك عليه ؟ يعني : أين العقد الذي أخذته به ؟ قال : عقدي وصكي : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴿١١﴾ ﴾ [النساء] فهو عقد أوثق وأعلى من تعاقد البشر .

وما دام عقدي من الحق ـ تبارك وتعالى ـ فلا تقُلْ : إن الميراث مأخوذ بغير عقد ؛ لأنه قائم على أوثق العقود ، وهو العقد من الله .

وكثيراً ما يخرج الناس في مسألة الميراث عما شرع الله حُبّاً في المال واستئثاراً به ، أو بخلاً على مَنْ جعل له الشرع نصيباً ، فمَنْ كان عنده البنون والبنات يعطي البنين ويحرم البنات ، ومَنْ كان عنده بنات يكتب لهُنَّ ما يملك حتى يحرم إخوته وأعمامهم من حقهم في ماله ، وهذا كثيراً ما يحدث في المجتمع .

ويجب عليك أن تتنبه لمسألة الميراث وتحترم شرع الله فيه وتقسيم الله للمال ، فقد وهبك الله المال وتركك تتصرف فيه طوال حياتك ، وليس لك أن تتصرف فيه أيضاً بعد موتك ، عليك أنْ تدعَ المال لصاحبه ووارثه يتصرف فيه ؛ لذلك قال الله تعالى عن الإرث : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ﴿١١﴾ ﴾ [النساء] يعني : ليست من أحد آخر ، وما دامت فريضة من الله فعليك أنْ تمتثل لها وتنفذها ، وحين تتأبَّى عليها فإنك تتأبَّى على الله وترفض قِسْمته .

والمتأمل فى مسألة الإرث يجد الخير كل الخير فيما شرعه الله ، ومَنْ كان يحب البنين فليُعْطِ البنات حتى لا يفسد علاقة أولاده من بعده ، ويأتى إلينا بعض الرجال الذين أخذوا كل مال أبيهم وحَرَموا منه البنات ، يقولون : نريد أن نُصحِّح هذا الخطأ ونعيد القسمة على ما شرع الله .

ونجد عند بعض الناس إشراقات إيمانية ، فإنْ رفض بعض الإخوة إعادة التقسيم على شرع الله يقول : أنا أتحمل ميراث أخواتى من مالى الخاص ، ومثل هؤلاء يفتح الله عليهم ويبارك لهم فيما بقى ؛ لأنهم جعلوا اعتمادهم على الله فيزيدهم من فضله ويُربى لهم القليل حتى يصير كثيراً ، أما مَنِ اعتمد على ما فى يده فإن الله يكِلُه إليه .

ونعجب من الذى يجعل ماله للبنات ليحرم منه إخوته ، نقول له : أنت لستَ عادلاً فى هذا التصرف ، يجب أن تعاملهم بالمثل ، فلو تركت بناتك فقراء لا مال لهن ، فمَنْ يعولهُنَّ ويرعاهن من بعدك ؟ يعولهن الأعمام . إذن : لتكُنْ معاملة بالمثل .

والحق - تبارك وتعالى - حين يُورث هذه الأصناف يورثهم بفضله وكرمه ، وقد بيَّن النبى ﷺ ذلك بقوله : « لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته »[1] .

أما قوله تعالى : ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾ [النحل] فهذا خاص بمجرد دخول الجنة ، أما الزيادة فهى من فضل الله ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ (١٧٣)﴾ [النساء]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .